(٣)

السيدة عائشة - رضى الله عنها

أبو بكر - رضى الله عنه - أبو أم المؤمنين عـائشة - رضى الله عنها - هو من أسبق السابقين إلى الإسلام، بل كان أول من أسلم من الرجال وكان بين إعلان إسـلامه، وبين دعوة الرسول إياه إلى الإسلام تلازم لم يفصل بينهما زمن، وكـأنه كا يترقب - بلهفة - الدعوة إلى الإسلام.

وإذا كـانت السـيدة خـديجـة أول السـابقين إلى الإسـلام من النساء، فـإن أبا بكر كان أول السابقين من الرجال، وفـضائله فى الإسـلام لا تحـصى، ومـلازمـتـه لصاحـب الدعـوة لم تنقطع، وتصديقـه إياه فى كل ما يقـول لم يتوقف، وإنفـاقه على فـقراء المسلمين مستمر، ودفاعه عن ضعفائهم لم يفْتُر، وكان رسول الله ﷺ يكثر من زيارته يبثـه همومه، ويكشف له عمـا فى نفسه من آلام وآمال، فيشاركه فى الآمال، ويتحمل معه الآلام يزوره مرتين فى اليوم، أولاهما فى أول النهار، والأخرى فى آخر النهار، وقل أن يزوره فى غـير هاتين السـاعتـين فيـفسح له أبو بكر صـدره،

وتسمع له أذناه، مودة صافية أسبابها معقودة فى السماء، وظلالها ممتدة على الأرض، كان دوره فى الدفاع عن صاحب الرسالة والإسلام يحبو فى مكة، مع قلة النصير، كدور مؤمن آل فرعون فى الدفاع عن موسى - عليه السلام - كلاهما صرخ فى وجه الطغاة قائلاً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. هكذا شبَّه كُتَّابُ السيرة مؤمن قريش - أبا بكر - بمؤمن آل فرعون، ورجل هذا شأنه يحبه الله ويحبه رسوله، وبهذين الحبين حظى أبو بكر - رضى الله عنه - وكانت خولة بنت حكيم السلمية حين أشارت على النبى بأن يتزوج، ذكرت له ابنة صديقه أبى بكر «عائشة - رضى الله عنها»، كما ذكرت له سودة بنت زمعة، وما كان لمحمد الرءوف الرحيم بالمؤمنين - كما وصفه ربه - أن يمانع فى الزواج من سودة المؤمنة الصابرة المثابرة التى أوذيت فى سبيل الله، وما كان له أن يمانع فى التقدم لخطبة ابنة صديقه الوفى الكريم أبى بكر، فآذن لخولة أن تخطب له الاثنتين مع الفارق الكبير بينهما:

الأولى فى الخامسة والخمسين من عمرها، والثانية فى السادسة أو السابعة من عمرها.

لقد كان بوسعه ﷺ أن يشير على خولة بأن ترجئ خطبة عائشة لصغر سنها، ولكنه - فيما يبدو - عَظُم على نفسه أن

يطفئ شعاعاً رقيقاً امتـد بينه وبين صديقه الحميم، فخرجت خولة من عنده وهى تحـمل بُشرَيين، إحـداهما لسـودة، وقد كـان من حديثـها ما كـان، والثانية لآل أبى بكـر، وقد نفذتهـا خولة على الوجه الآتى:

دخلت خولـة بيت أبى بكر ونادت زوجه أم رومـان قائلة: أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت أم رومان: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة.

قالت أم رومان: وددت.. انتظرى أبا بكر فإنه قادم.

وجاء أبو بكر، فقالت خولة: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ فقد أرسلنى رسول الله أخطب له عائشة.

فأثنـى أبو بكر على رسول الله ثم قـال: وهل تصلح له؟! إنما هى ابنة أخيه؟

قالت خولة: فـرجعت إلى رسول الله فأخبـرته بما قال أبو بكر فقال عليه السلام:

ارجعى إلى أبـى بكر فقولى له: أنت أخـى فى الإسلام، وأنا أخوك - أى فى الإسلام لا فى النسب - وابنتك تصلح لى.

فرجعت خولة وأخبرت أبا بكر بما قاله رسول الله ﷺ.

فقال أبو بكر: انتظرينى حتى أرجع.

وقالت أم رومان لخولة توضح لها الموقف: ولماذا أمرها أبو بكر بالانتظار وإلى أين ذهب؟!

فقد كان المطعم بن عدى قد طلب من أبى بكر ابنته عائشة لابنه جبير بن المطعم بن عدى، وأبو بكر ما أعلن رضاه ولا رفضه فأراد أن يتثبت، فخرج إلى بيت المطعم، وكانت امرأته أم جبير مشركة على دين قومها، فلما رأت أبا بكر داخلاً بادرت بالكلام قبل أن يتكلم أبو بكر فقالت:

«يا ابن أبى قحافة - تنادى أبا بكر - لعلنا إذا زوجنا ابننا ابنتك أن تدعوه للدخول فى دينك، وتخرجه من دين آبائه وقومه.

تريد أن تحذر أبا بكر، وتشترط عليه ألا يدعو ابنهما إلى الدخول فى الإسلام إذا تزوج عائشة.

فلم يرد عليها أبو بكر ولكن قال لزوجها المطعم: ما تقول هذه؟!

قال المطعم: إنها تقول ذلك الذى سمعت، وبهذا أظهر المطعم موافقته على ما قالت امرأته.

فسعد أبو بكر بما لقيه من المطعم وامرأته، وعاد إلى بيته مسرعاً، وقال لخولة: ادع لى رسول الله ﷺ.

إن الله عز وجل - أحكم الحاكمين - كفى أبا بكر مؤنة التحلل من ارتباط ابنته «عروس الفردوس» بابن المطعم بن عدى وأنطقه هو وامرأته بما أسعد خليل الرحمن أبا بكر - رضى الله عنه - وأخلص عائشة لتكون حبة مضيئة فى عقد أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن كلهن.

واحتلت عائشة مكانها ومكانتها فى بيت النبوة الطاهر، وكانت أم المؤمنين الثالثة فى مراسم الزواج العملى.

خطبها الرسول وعقد عليها وهى ابنة ست أو سبع سنين ثم تركها فى بيت أبويها تمرح وتلعب ريثما يحين وقت الدخول بها.

وقضى رسول الله ﷺ بقية وقته بمكة قبل الهجرة مع سودة بنت زمعة، قضاه أعزب وإن كان زوجاً ولم يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة.

فأين دواعى الشهوة فى هذه «الزيجة» المؤجلة؟ لو كانت الشهوة هى الباعث، فإن فى مكة غير سودة وعائشة من ربات الخدور الناضجات ما يملأ قلب النبى وبصره، ولكنه لم يفعل لأنه كان نوراً وهدى يسير على الأرض، زاهداً فى الدنيا وملذاتها، معرضاً عن زخارفها ومغرياتها، مقبلاً على ربه، طالباً رضاه، مشغولاً بأعباء الرسالة التى أشقى نفسه، وأسهر

جفنه وأدمى قدميه فى سبيل القيام بها، وكان بوده لو هدى الناس أجمعين.

فالشهوة - وإن كانت من أخلص الحلال وأطيبه فى زيجات النبى - ليست هى السبب فى واحدة منها - بل كانت مع كل زيجة أسباب سامية هى الداعية إليها فى المقام الأول، عرفنا ذلك فى زواجه عليه السلام - بالسيدتين الفضليين خديجة وسودة - رضى الله عنهما - أما أسباب زواجه بالسيدة عائشة فهو الوفاء والإخلاص والتكريم لأبيها المؤمن الكريم، ذى المناقب العالية فى الإسلام، قبل أن يصاهره النبى ﷺ، وبعد أن صاهره.

فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال:

«إنَّ مِنْ أمنِّ الناس علىَّ فى ماله وصحبته أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام».

كما جاء فى مناقب أبى بكر قوله ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه كبوة.. إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة.. ما لبث حين ذكرته له - أى ذكر له الإسلام - وما تردد فيه».

كما ورد:

«ما نفعنى مال قط ما نفعنا مال أبى بكر».

فالبر، وحسن الصلة، والمكافأة، والتكريم؛ هى الأسباب فى اقتران محمد ﷺ بالسيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الكريم.

أما المبشرون والمستشرقون، فالحق - دائماً - فى وادٍ وهم فى وادٍ آخر، وكأنى بالشاعر يعنيهم - فى من عنى - حين قال فى شدة المفارقة بين الأضداد:

سارت مشرِّقةً وسرت مغرِّباً
شتَّان بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّب

ثم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * *